اختيارات ابن المعتز من شعر الهجاء والمجون والحماقة في كتابه طبقات الشعراء

د. المهدي مأمون أبشر– قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة الخرطوم

المستخلص

يهدف هذا البحث إلى دراسة اختيارات ابن المعتز من شِعر الهجاء والمجون والخلاعة وشِعر الفقر والحماقة ، واتجه البحث إلى تتبع شِعر الهجاء من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي ، وتطوره وارتباطه بالمجون والخلاعة وبالإقذاع والفحش ، وكذلك تتبع شعر الحماقة والفقر ، محاولاً بذلك كله معرفة الأسباب التي دعت ابن المعتز إلى الاختيارات من تلك الأشعار ومعرفة الأسس التي اعتمد عليها. تبين من البحث أن ابن المعتز قد كان يهدف من اختياراته تلك إلى التغيير وإيراد التسلية من خلال الشعر الهزلي المتمثل في الهجاء وفي شعر الفقر والحماقة. وقد عبر شعر الهجاء آنذاك عن جوانب تتصل بالشعوبية والزندقة والسياسة والمذهبية، كما أن شعراء الحماقة والرقاعة والفقر عَبّروا عن حالة البؤس التي عاشتها الطبقات الفقيرة في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري. اتبع البحث المنهج الوصفي والنقدي.

Abstract

This research aims to study the choices of Ibn al-Muataz from poetry of hija, promiscuity, pornography, poverty and stupidity. The research traced the poetry hija of the pre-Islamic era to the Abbasid era, its development and association with obscenity, seduction, pornography and ribaldry, as well as tracing poetry of folly and poverty trying to know the reasons why Ibn al-Muataz selected those poems and knowing the bases on which he relied upon.

The research shows that Ibn al-Muataz aims to make a change and entertainment by those choices and through the comic poetry represented in hija and in the poetry of poverty and foolishness. The poetry of hija expressed aspects related to Populism, heresy, politics and Sectarianism. Poets of folly and those of poverty expressed the miserable situation of the poor classes in the Abbasid era of the third century.The research followed the descriptive method and that of criticism.

مقدمة:

عرض ابن المعتز في كتابه "طبقات الشعراء " لجماعة من الشعراء واختار من شعرهم في الهجاء ، والمجون ، والفقر والحماقة . ولم يكن العلماء من قبله يهتمون بأخبارهم وأشعارهم إلا فيما ندر وعلى سبيل التندر كما فعل الجاحظ ، أما أن يوردوا ضمن طبقات شعراء الفحول ويُختار من أشعارهم فلا، غير أن ابن المعتز لم يغفل

هؤلاء الشعراء ، وكان ذكره لهم طريفاً حقاً ، وعلله بقوله " وإنما أحببنا ألا نترك شيئاً مما ذكره أحد مدح في هذه الدولة خليفة ، وذكر في الشعراء ".

وليست هذه كل حجة ابن المعتز ، وإلا فإن بعض من مدح الخلفاء ولم يجد مكانه بين طبقاته أولى من هؤلاء كابن الرومي ، ولكن عاملاً آخر – فيما يبدو – قد أخفاه ابن المعتز ، ساقه إلى ذكر هؤلاء ، وهو أن الناس في بغداد ، وفي عصر ابن المعتز وما تلاه قد اهتموا بمثل تلك الألوان في الأدب ؛ وهي الألوان التي تبدو شاذة أو منحرفة ، ولعل الداعي لذلك ملل الناس من رواية الجاد ، والرغبة في التملح والتندر ، وهكذا كثرت رواية أشعار المجان والموسوسين والشواذ من الناس ، كما كثر قول الشعر في الموضوعات الغريبة التافهة أحياناً ، والتي لم يقربها الشعراء من قبل وتحرجوا من الدنو منها(١). وسنلاحظ حين النظر في اختياراته ارتباط الهجاء بالمجون واختلاطه به أحياناً في بعض الأشعار التي اختارها . من هؤلاء الشعراء الذين ورد ذكرهم في تلك الموضوعات : الحسين بن الضحاك ، أبو الينبغى ، ودعبل بن علي الخزاعي ، أبو سعيد المخزومي ، أبو الخطاب البهدلى ، علي بن الجهم ، حماد عجرد ، محمد الدورقي ، منصور الأصفهاني ، أبو الشمقمق ، محمد اليزيدي ، الفضل بن عبد الصمد الرقاشي ، والبة بن الحباب ، جحشويه ، أبو نعامة ، أبو حكيمة وأحمد بن أبي طاهر ،وهؤلاء الشعراء جمعوا بين الهجاء والمجون في أشعارهم ، وبعضهم وردت الإشارة إليه فقط دون الاختيار من شعرهم.

(١) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ١٢٤.

وهناك الشعراء الحمقى والفقراء ، ويأتي على رأس هؤلاء أبو العبر ، أبو العجل ، أبو الشمقمق وأبو فرعون الساسي ، كما أشار إلى بعضهم مثل أبي السواق ، أبي الغول ، وأبي الصيارة ، كما أشار إلى شعراء وصفهم بالظرف ، وهم قد جمعوا بين الهجاء والمجون مثل بشار ، وأبان بن عبد الحميد ، وأبي العتاهية وعوف بن محلم. وهذا يعد أوان النظر في موضوع الاختيارات.

الهجاء :

يمثل الصورة المناقضة للمديح في الشعر الجاهلي ؛ ففيه تعداد للرذائل الخلقية والاجتماعية وقد لاحظ بعض الباحثين أن الهجاء في العصر الجاهلي كان يشيع فيه الاتهام بضعف الهمة ، وفتور العزيمة والتخاذل.

ولم يسرف الشعراء الجاهليون في السب والمثالب ، وكانوا يكتفون أحياناً بالتهكم والتشكيك في فضل المهجو كقول زهير :

وما أدري ولست أخال أدري *** أقوم آل حصن أم نساء (١)

وكانت مسألة الهجاء من أكثر المسائل حساسية فيما يختص بالعرض وصفات الكرم أو البخل ، فكان أسوأ ما يوصف به المرء البخل أو الجبن أو الوضاعة وخسة الطبع(٢).

وفي العصر الأموي ظهر الهجاء أكثر ما ظهر في شعر النقائض الذي يقوم على التهاجي في الدرجة الأولى ثنائية الطابع مفردها نقيضة ، وهي قصيدة يرد بها شاعر على شاعر آخر بادره الهجاء فينقض معانيه المعنى تلو الآخر فيقلب فخره هجاء ويفخر بنفسه وبقومه على نفس الوزن والقافية ، وفيها خروج على مستلزمات الذوق الرفيع والآداب العامة ، وتحفل بذكر العيوب الخلقية والنفسية . وقد عَدَّ التعرض للعيوب الجسدية ضعفاً لا يحمده النقاد . ويكاد يجمع معظم الباحثين أن هذا الفن جاهلي المنبت كان بين الأوس والخزرج ، وبكر وتغلب ، وقيس وتميم ، وتميم وبكر ، وعبس وذبيان . ثم استمر في صدر الإسلام بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين .

(١) ديوان زهير شرح ثعلب ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط٢ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

(٢) راجع د. محمد حلمي عليوة : نظرات في الأدب الجاهلي (مخطوط) ص٩٧ ، ود. محمد صالح الشنطي في الأدب العربي القديم عصوره وتطوره وفنونه ونماذج مدروسة منه ط١ دار الأندلس للنشر والتوزيع حائل– المملكة العربية السعودية ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م ص١٢٤.

والفرق بين النقائض وفن الهجاء أن الهجاء لم يكن فناً معقداً ، فقد كان الشعراء يتبادلونه في ظروف معينة ، ويقفون عند أفكار شائعة تتمثل في الخصال الذميمة كالجبن والبخل وما إلى ذلك ، وكان الهجاء من الأغراض التقليدية العابرة ، فالهجاء فن قديم أما النقائض في صورتها المتعارف عليها فلم تظهر على نحو ناضج إلا في

العصر الأموي . والشعراء في الجاهلية لا يتقيدون بقيد النقائض الذي يلزمهم أن يردوا على نفس الوزن والقافية ، ثم هم لا ينقطعون إلى هذا اللون ويحترفونه ، ولم تكن العرب تعرف هجاءً منظماً يستمر يومياً بشكل متصل كما وجدنا في نقائض العصر الأموي (١).

وفي العصر العباسي ضعفت النقائض لأنها كانت مرهونة بظروف معينة سياسية وقبلية واجتماعية في العصر الأموي . وقد برز في فن الهجاء في العصر العباسي الجانب الفردي ، وقد تفاوت إقذاعاً وفحشاً واقترب كثيراً من التفكه والتندر في بعض نماذجه ، كما نال من الأعراض والأنساب والدين والخلق ، وقد ركز على الجانب الجسدي كما ركز على الجانب الخلقي . وقد اتجه شعر الهجاء اتجاهاً شعبياً وأصبح في بعض أشكاله سياسياً ومذهبياً ، وتطور فيما بعد ليصبح لوناً جديداً من ألوان الشعر الشعوبي الذي ينضح كراهية للعرب والإسلام . وارتبط شعراء الهجاء في ذلك العصر بالمجون والخلاعة والزندقة والشعوبية . ومن أبرز هؤلاء الشاعر حماد عجرد الذي هجا بشاراً بأبيات مطلعها :

وأعمى يشبه القرد *** إذا عمي القرد

وكان حماد عجرد في صحبة من الشعراء المشبوهين أمثال مطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وبشار ، وكان شعره في الهجاء مقذعاً(٢) .

---

(١) د.محمد صالح الشنطي مرجع سابق ص ٢٦٤ وما بعدها.

(٢) نفسه: ص٣٣٦.

خفّت في العصر العباسي حدة شعر التهاجي المنبعث عن العصبيات القبلية حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة في نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد كما تمثلت في نقائض دعبل وأبي سعيد المخزومي ومرجع ذلك إلى تطور واسع في الحياة ، جعل الفخر القومي " الشعوبي " يحل محل الفخر القبلي مما دفع إلى ظهور الشعوبية ،

وحقاً بقيت أسراب هذا الفخر عند القبائل ومواليها ، مثلا عند بكر بن النطاح ، وأبي نواس ولكن الدولة كانت لهم بالمرصاد ، خاصة هارون الرشيد ، فلم تحتدم نار العصبية وبالتالي خبت نار النقائض التي اشتعلت في العصر الأموي. وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأت نيرانه بل اضطرمت وتعالت ، فظل الشعراء يهجون الولاة والوزراء والقواد ، بل بعض الخلفاء كما نجد عند دعبل بن علي الخزاعي. وكذلك تهاجى الشعراء بعضهم مع بعض ، مثل تهاجى حماد عجرد وبشار ، وحماد ومطيع بن إياس ومن أكثر من هُجي في هذا العصر أبان بن عبد الحميد ، وقد تهاجى مع أبي نواس ، وأكثر من تبادل الهجاء معه المعذل بن غيلان . وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه ، فسلقوه بألسنة حداد ، وفي مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشي. وتهاجى أبو العتاهية ووالبة بن الحباب،وانتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسماً حتى فر منه راجعاً إلى الكوفة وخمل ذكره. واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر ، فتبادلا الهجاء ، وكان سلم يرميه بأنه كاذب في زهده ويرميه أبو العتاهية بشح نفسه وما يجره عليه من الذل . وممن اصطدم به مروان بن أبي حفصة وأبو الشمقمق ، وشاعر يسمى الجنى. وكان دعبل الخزاعي كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه ، وربما كان أهم شاعر حسده أبا تمام حتى كان لا يكتفي بهجائه بل يدعي عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين . ومن أكبر شعراء الهجاء آنذاك أبو عيينة المهلبي وعبد الصمد بن المعذل. وأبو عيينة من الشعراء المطبوعين ، وقد استغل موهبته في فنيين هما الهجاء والغزل(١)

(١) شوقي ضيف العصر العباسي الأول ط٧ دار المعارف بمصر ص ٣٩٥ وما بعدها .

وأما عبد الصمد بن المعذل فقد كان هجاءً خبيث اللسان ، وكأن الهجاء عنده غريزة وكان فيه لهو ومجون وتعابث ، وقاد معارك هجاء كثيرة مع الشعراء (١).

وقد اشتدت في أواخر العصر الأموي موجة المجون في خراسان والعراق وخاصة الكوفة حيث نشأت جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع بن إياس وحماد

الراوية وحماد عجرد ويحيى بن زياد ، وهم أكثر صلة بالعصر العباسي وقد أكب كثير من الناس وبعض خلفاء بني أمية على الخمر واللهو والمجون (٢).

وكثر شعرء المجون في العصر العباسي وارتبط بوصف الخمر ، وعملت على ذلك أسباب مختلفة فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد . وكان الشعراء يمعنون في المجون والفجور وشرب الخمر في الكوفة والبصرة وبغداد مع اشتداد الفسق والغزل المفحش . ومن هؤلاء بشار وغزله المادي الصريح ، ووالبة بن الحباب الذي أسرف في المجون والخلاعة والغزل الشاذ ، وهو الذي أدب أبا نواس وأفسده ، ومنهم الخاركي ، والرقاشي وهو من مجان بغداد المشهورين . يقول عنه أبو الفرج :" كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التي يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة في الناس ، مبتذلة في أيدي الخاصة والعامة التي أولها :

أوصى الرقاشي إلى أخوانه *** وصية المحمود في ندمانه (٣)

ويقول ابن المعتز إنها كانت في الغلمان وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب(٤).

ومن أشهر المجان كما أشرنا حماد الراوية وحماد عجرد ومطيع بن إياس ، وقد وُصِفوا بخبث الدين والزندقة والمروق من الإسلام وشريعته الغراء(٥).

(١) د. شوقي ضيف مرجع سابق ص ٢٦٦.

(٢) د.شوقي ضيف العصر الإسلامي ط٧ دار المعارف بمصر (دت) ص ٣٨٠.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني الأغانى طبعة دار الكتب ج ١٦ ص٢٤٦ .

(٤) ابن المعتز طبقات الشعراء ص٢٢٦.

(٥) د.شوقي ضيف العصر العباسي الأول ط٧ دار المعارف بمصر دت ، ص٣٨٢ وما بعدها.

كان الشعر العباسي يصدر في جمهوره عن روح الشعب ، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكان يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها . وكان لأبي العتاهية أشعار يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت كثرة الشعب تجثم في البؤس والمسغبة ، ولا تجد يداً تمتد إليها

وتخمد نار الفقر والضنك المشتعلة بين طبقاتها ، ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العاري ويسقي الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكدية ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسي ، وله شعر يصور فيه بؤسه وبؤس أولاده ، وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم .

ومن الشعراء الذين عاشوا في ضنك وحرمان أبو المخفَّف ، وكان في أيام المأمون ، وكان يدور في بغداد يسأل الناس رغيفاً أو كسرة خبز ؛ وله أشعار مختلفة في وصف الرغيف وكيف كان همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكسر البائسة يتبلغون بها ، وهو لذلك يجعله موضوع شعره . ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات اليائسة مثلما وصفها أبو الشمقمق ، وَوُصِفَ بأنه قبيح المنظر خبيث اللسان هجاءً فتحاماه الناس ، فعاش فقيراً محروماً . وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتى في المديح ، وكانت أهاجيه مملوءة بالفحش والألفاظ البذيئة حتى كان الشعراء – أمثال بشار – يتحاشونه ويخشونه خشية شديدة.

وكانت أشعاره تمس قلوب الشعب ، وهي أشعار صَوَّر فيها فقره وبؤسه .

وله أشعار كثيرة صوّر فيها فقره وأنه لا يقتني حتى ما يكسو به السرير الذي ينام عليه ، وأنه لا يملك من المتاع شيئاً إلا حصيرة وبعض الأطمار الخلقة . وهو يصور في شعره سوء حظه ، ويصور مسغبة عياله ، وهو في الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة في بغداد التي كانت تكدح لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هي في الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، وقد تعدمها جميعاً . وكان يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان دائماً يصف ويصور أحاسيس الفقر وضنك العيش ، وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالاً شديداً (١) .

هكذا وجدنا شعراء الهجاء والمجون والخلاعة والفقر والحماقة في العصر العباسي مما يلقى لنا بعض الضوء على اختيارات ابن المعتز من تلك الأشعار وموضوعاته.

(١) شوقي ضيف نفسه ص ٤٣٤ وما بعدها .

اختيارات ابن المعتز من شعر الهجاء، والمجون والحماقة:

وصف ابن المعتز الحسين بن الضحاك بأنه شاعر مُفتن وأن الهجاء هو أحد الأغراض التي نتوقع أن يجيد هذا الشاعر النظم فيها، وقد وصف ابن المعتز عدداً

من الشعراء ممن تمثل بهم على أنهم يجيدون فن الهجاء، ويمكن أن تدلنا تعليقاته على بعضهم وعلى لون الهجاء الذي يستجيده. فعلى سبيل المثال، وصف لنا الشاعر أبو الينبغي بأنه كان سريعاً إلى ثلم أعراض الناس بالهجاء، مولعاً في شعره بالمجون وكان جيد الارتجال للشعر خبيث اللسان[1] وأنشد ابن المعتز بيتاً مفحشاً في الهجاء ارتجله أبو الينبغي رداً على شاعر هجاه بقوله:

عجوزُ أبي الينبغي عجوزُ سوء بغي

إلى جانب فحشه في اللفظ والمعنى، كان أبو الينبغي يستخدم في هجائه اللفظ السخيف لكي يجذب العامة والصبيان إلى شعره وقد أورد له ابن المعتز الأبيات التي مطلعها:

ورجاء الجرجرائي لو دَرى ما حُسن رائي

ووصف الأبيات بأنها هزلية وطريفة[2].

وعلى الرغم من أن هذا اللون من الهجاء كان فاحشاً ومؤثراً جداً إلا أن ابن المعتز فيما يبدو كان يرى أن إنشاد مثل هذا الشعر أدخل في باب الهزل. ومن الأمثلة الجيدة على هذا اللون الشعري أبيات دعبل بن على الخزاعي في الردْ على أبي سعيد المخزومي الذي هجا دعبلاً بأبيات فاحشة يقول مطلعها:

لدعبل نعمة نَمُتُّ بها ليستْ له ما حييتُ أنساها

فغضب دعبل للأبيات وارتجل قصيدة فاحشة في الرد على أبي سعيد يقول مطلعها:

يا أبا سَعد قوصره زاني الأخت والمره

ومن أجل أن يجعل أبياته أكثر انتشاراً وشيوعاً بين الناس وأشد تأثيراً لجأ دعبل إلى طريقة مسرحية خبيثة إذ جمع عدداً من الصبية ونفحهم بعض الفاكهة ثم طلب منهم

---

[1]) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٣٠-١٣١.
[2]) المصدر السابق ص ١٣٠-١٣١

أن يرفعوا أصواتهم بالقصيدة في الطرقات كلما وقعت أبصارهم على أبي سعيد؛ ولم يجد الأخير بُداً من مغادرة بغداد فهجرها إلى الأبد[٣].

وممن اشتهر بالهجاء أيضاً أبو الخطاب البهدلي وعلى بن الجهم الذي وُصِفَ بأنه قادر على وضع لسانه أينما شاء. ولعل هذا قد يعني شاعريته المتدفقة في الهجاء أو أنه لا يسلم من لسانه أحدٌ شريفاً كان أو وضيعاً. ومنهم أيضاً منصور الأصفهاني الذي يُعدُّ من الشعراء المجيدين في فن الهجاء[٤].

إضافة إلى هذا اللون من الهجاء فقد أورد ابن المعتز من شعر المحدثين أمثلة عديدة للون آخر من الهجاء يركز فيه الشاعر على المظهر الجسماني للمهجو ويتحدث عن قبحه وقذارته إلى غير ذلك ، كما أورد أمثلة للون ثالث يرسم فيه الشاعر لضحيته صورة هزلية ساخرة ، وقد عَدَّ ابن المعتز هذا اللون من الهجاء مظهراً من مظاهر الهزل واختاره في طبقاته بوصفه نوعاً من التسلية والخروج عن الشعر الجاد.

ونجد في تلك الأمثلة من الهجاء موضوعات تتسم بالفحش مثل الحديث عن الانحراف والشذوذ والزنا في لغة صريحة ومباشرة كما أن المعاني تعرض في مثل هذا اللون من الهجاء في كثير من المبالغة من أجل أن يقدم الشاعر الشخص المهجو في أسوأ صورة ممكنة وأشدها زراية. ومما يلاحظ أنَّ نظرة ابن المعتز لمثل هذا اللون من الهجاء تختلف عن نظرة النقاد الأوائل ممن سبقه أمثال أبي عمر بن العلاء وخلف الأحمر والشاعر الأخطل، الذين كانوا جميعهم يطلبون العفة والصدق في شعر الهجاء.

---

[٣]) نفسه ص ٢٩٦-٢٩٧.

[٤]) ابن المعتز ص ١٣٥-٣٢٠-٣٤٤.

وهناك لون آخر من الهجاء كان مما يعجب النقاد القدماء وهو الهجاء المسمى بالإقذاع؛ ويبدو أن ابن المعتز كان معجباً به كما يظهر من اختياراته، مثل القصيدة التي مطلعها:

داودُ مَحْمودٌ وأنت مُذممٌ عجباً لذاك، وأنتما من عُود

والأخرى التي تقول:

لشتان ما بين اليزيدين في الندَّى يزيدُ سُليُم والأغر ابن حاتم

وقد سبق الحديث عنهما حينما أوردنا اختياراته من شعر المديح.

وفي الأشعار التي اختارها من فن الهجاء نلاحظ ورود بعض محاسن الشعر ومن أظهرها ما يسمى بالاستطراد الذي اُسْتُخِدَم كثيراً. ولعل أول من استخدمه من الشعراء القدماء الشاعر السمؤل وذلك في قوله:

ونحنُ أناسٌ لا نرى القتل سُبَّة إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

يُقرب حبُّ الموْت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطولُ

وتبعه الفرزدق فقال:

كأن فقاح الأسد حول ابن مسمع إذا اجتمعوا أفواه بكر بن وائل

والاستطراد في البيت الأول عند السمؤل يتمثل في أن الشاعر بينما كان يفخر في صدر بيته فإذا به يتحول إلى هجاء عامر وسلول. في بيت الفرزدق يتمثل الاستطراد فيما نراه من وصف فقاح الأسد في صدر البيت ثم تحول الشاعر إلى هجاء بكر بن وائل في عجز بيته.

هذا وقد جاء جريرٌ بأكثر من استطراد في قوله:

لمَّا وضعتْ على الفرزدق ميسمى وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل

فقد بدأ بهجاء الفرزدق وتركه وانتقل إلى هجاء البعيث وترك هذا إلى هجاء الأخطل[٥] ولبشار بن برد قصيدة أتى فيها بالاستطراد الجيد كما يرى ابن رشيق[٦]

---

[٥]) ابن رشيق: المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧.

ولعل ابن المعتز قد أوردها لهذا السبب وقد جاء الاستطراد في البيتين الأول والثاني منها حيث يقول:

خليلي من كعبٍ أعينا أخاكما على دهره إنَّ الكريم مُعينُ

ولا تبخلا بُخل ابن قزعة إنه مخافة أنْ يُرْجَى نداه حزينُ[٧]

رأي النقاد حول الهجاء وموقف ابن المعتز:

وقد ذكر عبد العزيز الجرجاني أنَّ أجود الهجاء هو ما جاء على سبيل الهزل والتهكم وبين التعريض والتصريح. كما يشترط فيه أن تكون معانيه سهلة الفهم حتى يمكن حفظه ولم يكن الجرجاني ممن يقبل الفحش والشتم والقذف في شعر الهجاء[٨] ويتفق ابن رشيق مع الجرجاني في وجوب أن ياتي شعر الهجاء بين التعريض والتصريح بل يرى أنَّ التعريض مطلوب لأنه فيه الدلالة على أن هناك أشياء لم تُقلْ وهذا مما يعطي السامع فرصة للتفكير فيها والمشاركة في استكشافها[٩] وكلاً من قدامة وابن رشيق يتفقان في أن أجود الهجاء يأتي عن طريق سلب المهجو من الفضائل والصفات النفسية؛ ويضيف ابن رشيق أن هجاء الرجال بالعيوب الجسمانية كالقبح مثلا ليس بالجيد وقد كان قدامة صريحاً حينما حدد بوضوح أنه يرفض تماماً الهجاء بالصفات الجسمانية أو هجاء آباء الرجل وأجداده إن كانوا غير كرام إذا كان الرجل نفسه محموداً في ذاته[١٠] وابن المعتز –في أكثر أحواله– نجد نظرته إلى شعر الهجاء تتفق مع نظرة هؤلاء النقاد. وعلى سبيل المثال فإنه يستحسن الهجاء بالتعريض كما يتضح لنا من تعليقه على بيتي ابن عائشة القرشي حيث يقول:

مَنْ تكنْ إبْطه كآباط ذا الخلْ ق فابطاي في عداد الفقاح

لي إبطان يرميان جليسي بشبيه السُلاح أو بالسُلاحِ

---

[٦]) نفسه ص ٣٨.
[٧]) ابن المعتز: المصدر السابق ص ٢٦.
[٨]) القاضي الجرجاني: الوساطة ص ٢٣.
[٩]) ابن رشيق: نفسه ج٢ ص ١٦٤.
[١٠])قدامة بن جعفر المصدر السابق ص ١١٤.

فالشاعر كما يبدو من الظاهر أنه يهجو نفسه لكنه في الحقيقة يعرِّض بشخص آخر، وقد استحسن ابن المعتز البيتين جداً على أنهما من جيد شعر الهجاء[١١] غير أنَّ نقطة الخلاف الجوهرية عنده مع أولئك النقاد هي ما يتصل بموضوع الفحش والسخرية من الصفات الجسمانية؛ فقد كان موقفه تجاه ذلك أشبه بالمرح الطفولي ولعل خير مثال على ذلك الأبيات التي أنشدها حمّاد عجرد في هجاء بشار بن برد وهي قوله:

ويا أقبح من قِردِ إذا ما عمى القردُ

وقوله:

لو طُلِيَتْ جلدته عنبراً لِنَتَّنتْ جلدتهُ العنبرا

أو طُلِيَتْ مِسكاً ذكياً إذاً تَحَوَّلَ المِسكُ عَليه خَرَا

ومع أن حماد عجرد كان قد قال كثيراً من الهجاء في بشار إلا أن الأخير كان يرى أن هذه الأبيات هي أشدَّ ما هُجى به وأكثرها إيلاماً وأثراً في نفسيته[١٢]. ومن الأمثلة الأخرى أبيات محمد بن الدورقي والتي وصفها ابن المعتز بأنها فاحشة ثم أورد منها البيت التالي:

يقول جليساه إذا خلو به تَنَفَّس يحيى ويحه أمْ تَغَوطَّا[١٣]

ولا نعدم في شعر ابن المعتز نفسه دليلاً على ميله نحو هذا الاتجاه في الهجاء؛ فمن ذلك قوله في مغنٍ:

وعندنا مَنْ يتغنىَّ كأنه من فمهِ يخرا

وكذلك قوله:

قد نتنَ المجْلس مُذْ جئتنا فكلَّ مَنْ مَرَّ يبصقً

فغَذِّ إبطيك وأشبعهما في الصيف بالمرتك يا أحمقُ

---

[١١]) ابن المعتز نفسه ص ٣٣٨.
[١٢]) ابن المعتز ص ٢٥.
[١٣]) نفسه ص ٣٣٦.

ولا تقلْ ما فيهما حيلة فالحُشَّ قد يُكنس أو يُطبقُ[١٤]

ولعلنا نجد تفسيراً لميل ابن المعتز لهذا الاتجاه في الهجاء كما تعكسه لنا اختياراته وشعره على حدٍّ سواء –في الربط بين هذا وبين فكرة الهزل والتسلية وقد يؤكد هذا أيضاً ما زعمناه من قبل من أنَّ الوان الهجاء الجاد قد أوشكت أن تفقد أهميتها إلى حد ما. والأمثلة التي أوردها ابن المعتز تهدف جميعها إلى تصوير المهجو وعرضه في أسوأ حالات السخرية والقبح. ولننظر إلى هذه الأبيات وهى من شعر منصور الأصفهاني القائل:

لهُ وَجهُ خنزير وخيشوم بغلةٍ وصدرة مَلاح وتقطيع حائكِ

شكا فسْوه جِنُّ البلاد وأنسها وقدْ خِفْتُ أن يؤذي خيار الملائكِ

فلو كان في أهل الجحيم لولولوا إلى ربهم من فسوه المتداركِ

وقالوا:العذاب الضعف أهون عندنا وكلهم مستصرخ نحو مالكِ

و هو القائل أيضاً:

وجه المغيرة كله أنفُ مُوفٍ عليه كأنه سقفُ

رجلٌ كوجه البغل طلعته ما ينقضي من قبحه الوصفُ

من حيث تأتيه تبصره من أجل ذاك أمامه خلف

جفت المدائح عن خلائقه ولقد يليق بوجه القذف[١٥]

وهذا الاتجاه ينطبق حقاً على شعر الهجاء عند ابن المعتز؛ ومن الأمثلة على ذلك قوله في وصف مغنية تدعى بدعة:

حدثونا عن بدعةٍ، فأبينا فتغنت فطنَّ في البيت بوقُ

وإذا شوكة تقصفُ يُبساً فوقها رأس فارةٍ مَحلوق

وكذلك قصيدته التي مطلعها:

---

[١٤]) ديوان ابن المعتز ص ٢٢٤-٣٤١.

[١٥]) ابن المعتز طبقات الشعراء ص ٣٤٩.

أيا رب لا تقبل صَلاة معاشر[١٦]

هذا. وقد كان معظم شعر الهجاء الذي اختاره أو نظمه يتكون من مقطوعات قصيرة أو أبيات مفردة وهو يتفق في هذا مع غالبية الشعراء الذين ذكرناهم ممن كانوا يفضلون الإيجاز في الهجاء. ويبدو أن الفحش والشتم الواضح المتميز بالقسوة مما وجدناه سائداً في شعر الهجاء لم يكن موضع استنكار أو اشمئزازٍ دائماً بل إننا نجد في بعض الأحيان مَنْ يستلذه من أولئك الضحايا؛ والحق أن بعض الشعراء كانوا يطلبون من الآخرين أن يهجوهم ولعلّ هذا يؤكد ما نزعمه من قبول مثل هذا اللون من الهجاء. وما يروى عن أبي الشمقمق له دلالته في هذا الشأن فقد ذُكِرَ أنه أعطى أحد الأعراب مالاً وطلب منه أن يهجوه فما كان من الإعرابي إلا أن ارتجل أبياتاً أفحش فيها جداً يقول مطلعها:

مررت... بَغْلٍ مسيطرٍ فويق الباع كالحبل المُطوقْ

ولقد طلب الشاعر سلم الخاسر من محمد اليزيدي أن يهجوه بقصيدة على روي قصيدة امرئ القيس التي مطلعها:

ربَّ رام من بني ثعل مُخرج كفيه من سُتره

فارتجل اليزيدي قصيدة في هجاء سَلْم تتضح بالفحش والمجون يقول مطلعها:

ربَّ مُغموم بعافيةٍ غَمَط النعماء من أشره[١٧]

إنَّ الارتباط بين شعر الهجاء في تطوره أو انحطاطه على أيدي المحدثين، وبين شعر المجون والحماقة، وكلا الغرضين كانا حديثي الظهور والنمو إلى درجة ما، إنَّ هذا الارتباط واضح جداً إلى درجة يصعب أحياناً التفرقة بينهما حقاً.

---

[١٦]) ديوان ابن المعتز ص ٣١٠-٣٣٩.
[١٧]) ابن المعتز طبقات الشعراء ص ١٢٦-٢٧٣.

دفاع ابن المعتز عن اختياره من شعر المجون:

يبدو أن ابن المعتز هو أول ناقد يعترف بشعر المجون ويورد منه الكثير في اختياراته من أشعار المحدثين وقد كان النقاد الذين سبقوه من أمثال المبرد وابن قتيبة، وآخرين أكثر اهتماماً بالجانب الأخلاقي في الشعر كما تمثله أبيات الحكمة والمثل والوصايا والمواعظ.

وقد واجه شعراء مثل امرئ القيس وعدي بن زيد نقداً من أولئك النقاد لتعهرهما وتصريحهما بالفاحشة والدبيب إلى حرم النساء، لأن الشعراء اعتادوا إخفاء مثل هذه الأمور وعدم التصريح بها في أشعارهم. وقد ظل الاتجاه فى الاهتمام بالجانب الأخلاقي في الشعر سائداً على زمان ابن المعتز عند كثير من النقاد مثل محمد بن القاسم العنبري الذي أرسل إلى ابن المعتز رسالة يعترض فيها على إيراد ابن المعتز في طبقاته لشعر المجون عند أبي نواس ويقول القاسم في رسالته تلك أن مثل هذه الشعر يجب أن لا يُنْشد ولا يُدَوَّن في الكتب ولا يُنَّقل إلى الأجيال. وفي رَدِّه على القاسم يقول ابن المعتز أن الشعر لا يُبنى على الصدق والحشمة وإذا كان كذلك فإن أشعر الشعراء سيكون أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد لأن في أشعارهما من النصح والمواعظ أكثر مما في شعر امرئ القيس والنابغة. ويضيف ابن المعتز أن الناس كانوا من قديم الزمان ينشدون أشعار كبار الشعراء مثل امرئ القيس والأعشى، والفرزدق وعمر بين أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على الرغم من خلاعتهم وفجورهم. كما أنهم كانوا ينشدون على الملأ نقائض جرير والفرزدق حتى في المساجد. هذه الأشعار وأشباهها كان ينشدها العلماء ممن اشتهروا بالورع؛ والحق أنه لم يكن بين السلف مَنْ حرم إنشاد الشعر الفاحش والذي يُسْتَحى منه[١٨].

هكذا دافع ابن المعتز عن نفسه في اختياراته لشعر المجون غير أنَّ حجته الأخيرة مما لا يُسلم له بها فقد رأينا من النقاد الأوائل أمثال عمر بن الخطاب ومعاوية بن

[١٨]) الحصري القيرواني: الجواهر في الملح والنوادر ص ٤١.

أبـي سفيان رضـى الله عنهمـا وكذلك عبـد الملك بـن مـروان إلـى جانـب آخـرين كـانوا جميعهم ممن يطلب ويشجع الاتجاه الخلقي في الشعر. وهناك من الأحاديث النبوية الشريفة ما فيه الكفاية حول هذه النظرة في نقد الشعر. ومع أن ابن سلام وابن قتيبة كانا يتبعان هؤلاء النقاد بصورة عامة إلا أنهما كانا في الحقيقة أول من أورد أبياتاً فاحشة لامرئ القيس وسحيم عبد بني الحسحاس وضابىء بن الحارث البرجمي. وقد كان المبرد يدعو إلى استخدام الاستعارة لتجنب اللفظ الفاحش؛ ويبدو أن نظرة ابن المعتز إلى شعر المجون والفحش قد كان لها تأثيرها على نقاد آخرين أمثال الصولي، وقدامة بن جعفر والقاضي الجرجاني[١٩]. وقد كان قدامة يرى أنه يحق للشاعر أن يتطرق إلى أي معنى بغض النظر عن فحشه، وكل ما يطلب منه أن يكون مجيداً في الشاعرية، من أجل هذا نجده ينتقد أولئك الذين يعيبون على امرئ القيس أبياته التي أفحش فيها ويرفضونها تبعاً لما فيها من فحش فى المعنى، وهى قوله:

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم مُحول

إذا ما بكى من خلفها انصرمتْ له بشق وتحتي شقها لم يُحوَّل

وعند قدامة أن فحاشة المعنى لا تمنع الشاعر من أن يكون مجيداً في صنعته لأن المعنى الشعري هو المادة بالنسبة للشاعر تماماً كالخشب الذي هو المادة بالنسبة للنجار. فإذا كانت قطعة الخشب ردئية فلا يعني هذا بالضرورة أن النجار غير حاذق في صنعته[٢٠]. ويقرر عبدالعزيز الجرجاني أن عدم تدين الشاعر لا يقدح في شاعريته ولا يُعدُ عيباً من هذه الناحية، ولا عائقاً له عن الإجادة الشعرية ولو كان الأمر على غير ذلك إذا لأسقطنا من دواوين الشعراء اسم أبي نواس ولأسقطنا على

---

[١٩]) الصولي: أخبار أبي تمام ص ١٧٤.

[٢٠]) قدامة بن جعفر: نقد الشعر ص ٤-٥.

الأخص أسماء شعراء العصر الجاهلي من قائمة الشعراء ويرى الجرجاني أن الأمر ليس كذلك وأنَّ الديانة بمعزل عن الشعر[٢١].

موضوعات شعر المجون:

يقول أبو نواس أنَّ أول من جاهر بالمجون وخلع العذار هو الخاركي، وقد كان الشعراء في السابق يتسترون في هذه الأمور ولكن حينما صحب أبو نواس الخاركي أعلن مجونه ومن ثمَّ فعل الذين اتبعوا طريقتهم[٢٢]. والموضوعات التي تناولها شعر المجون ذكرت بالتفصيل في أرجوزة شهيرة للفضل بن عبد الصمد الرقاشي يقول مطلعها:

أوصي الرقاشي إلى خلانهِ وَصيَّة المحمود إلى إخوانهِ

وفي تلك الأرجوزة أشار إلى الشذوذ وشرب الخمر، والقمار، وهراش الديكة، وقتال الكلاب[٢٣] ومن أشهر شعراء المجون والبة بن الحُباب وقد كان شديد التأثير في أبي نواس إلى الحدِّ الذي جعل العامة الحمقى–كما وصفهم ابن المعتز– ينسبون كل قصيدة في المجون من شعر والبة أو غيره إلى أبي نواس، وقد أورد ابن المعتز ثلاث قصائد في المجون لوالبة وكلها تتحدث عن شرب الخمر والشذوذ[٢٤] وهناك شعراء آخرون اشتهروا بالمجون من أمثال الحسين بن الضحاك الخليع، وجحشويه وأبي نعامة، وهؤلاء استشهد ابن المعتز بقصائدهم في الشذوذ[٢٥].

ويبدو أن شعر المجون قد كان مألوفاً ومحبباً إلى جمهرة من الناس آنذاك؛ وقد ذكر ابن المعتز شعر أبي حكيمة وهو شعر كثير نظمه في رثاء المتاع وكان يُنشد في كل مكان. وكان أبو حكيمة هذا يزعم أنه لا يوجد له نظير في هذا الفن؛ وقد كان الشعراء يأتون إليه بقصائدهم ليحكم فيها. ومن هؤلاء أحمد بن أبي طاهر وله قصيدة

---

[٢١]) القاضي الجرجاني: الوساطة: ص ٦٤.
[٢٢]) نفسه ص ٦٤.
[٢٣])ابن المعتز ص ٢٢٧.
[٢٤]) نفسه ص ٨٧-٨٩.
[٢٥]) نفسه ص ٢٧٠-٣٨٧-٣١٩.

يشكو فيها عجزه. أوردها ابن المعتز كما أورد عدداً من قصائد أبي حكيمة منها واحدة مشهورة جداً يشكو فيها من ضعفه وعجزه. ولم نورد مطالع القصيدتين لما فيهما من فحش صريح[٢٦].

الشعراء الحمقى والفقراء:

أورد ابن المعتز أشعار هاتين الطائفتين من الشعراء لأجل التسلية والترويح؛ وقد كانت الخصائص المشتركة بين أولئك الشعراء هي أن قصائدهم ممتلئة بالسخرية والدعابة. فقد كانوا يسخرون من أنفسهم وأهل بيتهم من أجل أن يُضْحِكوا الناس فينفحونهم شيئاً من المال أو غيره في مقابل هذه الدعابة الساخرة المتهكمة وما تخلفه من تسلية وترويح. وكان بعض أولئك الشعراء يرتدي ثياب الحمقى ويتصرف مثلهم وإن لم يكن هو نفسه في عداد الحمقى. ولعل السبب الرئيس وراء ظهورهم هو الفقر كما يمكن أن يُفهم من حديث ابن المعتز عن بعضهم. وقد أرجع د. عزالدين إسماعيل السبب وراء ظهورهم إلى حالة الإحباط التي أصابت الناس واليأس الذي انتابهم خاصة العامة نتيجة لتدهور الأحوال السياسية والاقتصادية والسياسية في العصر العباسي مؤخراً فكان موقفهم رفضاً للعصر وقيم المجتمع الهابطة.(*).

ومن النماذج التي تناولها ابن المعتز الشاعرين أبي العبر وأبي العجل وهما يمثلان الشعراء الحمقى، وأبي الشمقمق وأبي فرعون الساسي وهما يمثلان الشعراء الفقراء. وقد يطلق على الشعراء "الحمقى" أيضاً اسم شعراء الرطازه والرقاعة.

وعلى الرغم من وصف ابن المعتز لشعرهم بأنه لا طائل من ورائه ولا نفع فيه إلا أنه أورد منه كثيراً من الأمثلة. وأبو العبر نفسه –وقد كان أستاذ الشعراء الحمقى–؛ وصف شعره بالبرود وأنه يثير الضحك. وقد وصفه ابن المعتز بأنه من أهل الثقافة والأدب ولكنه لما رأى أن سوق الحماقة والدعابة رابحة طرح العقل وتحامق فصار

---

[٢٦]) ابن المعتز ص ٣٩٠-٤١٦.

*في الأدب العباسي الرؤية والفن، بيروت ١٩٧٥ ص٢٨٥–٢٨٨.

رأساً في الرقاعة[٢٧]. ومن أجل هذا صار مقدماً عند شعراء الحماقة الآخرين من أمثال أبي السوّاق، وأبي الغول، وأبي الصياره ومن في طبقتهم، جعلوه رئيسهم يأخذون برأيه ومشورته[٢٨] ولقد سئل مرة لماذا دجلة أكثر عرضاً من الفرات ولماذا القطن أشدَ بياضاً من الكمأة؟ فأجاب:

لأن الشاة لَيْسَ لها منقار وذنب الطاؤوس أربعة أشبار

وبمثل هذه الجهالات كان يمدح الخلفاء ويهجو الملوك كما يقول ابن المعتز[٢٩] والقصيدة التالية تمثل نموذجاً جيداً لطريقته في الشعر وتعرض لنا مذهبه في الدعابة وتسلية الناس يقول:

أ نا أنا أنت أنا أنا أبو العبرنَّهْ
أنا الغنى الحمقوقوا أنا أخو المجنهْ
أنا أحرر شعري وقد يجيْ بردَنهْ
فلو سمعت بشعري في الدس والوترنهْ
لسقر قر سقر نقر وما تارنهْ
لكنت تضحك حتى تمسك البطنهْ[٣٠]

في هذه القصيدة نرى أن هذا الشاعر الأحمق يروج لشعره عن طريق التحامق فيظهر لا عقلانيته في البيت الأول حيث يعرّف نفسه بقوله"أنا أنا أنت أنا" وفي البيت الثاني يعترف بأن حماقته أكسبته المال فصار غنياً، فهو الغني الأحمق. وبقية الأبيات بمثابة الدعاية لشعره ودعوة الناس للمجيء والاستماع إليه من أجل التسلية والمرح.

وحديث ابن المعتز عن الشاعر الأحمق الآخر وهو أبو العجل، يدلنا على أن الفقر هو السبب وراء ظهور تلك الفئة من الشعراء وقد وصف ابن المعتز هذا الشاعر بأنه

---

[٢٧])ابن المعتز ص ٣٤٢.
[٢٨]) نفسه ص ٣٤٣
[٢٩]) نفسه ص ٣٤٣.
[٣٠]) نفسه ص ٣٤٣.

واحد من أكثر أهل الأدب معرفة وأنه من عقلاء الرجال، ومن أجود الشعراء والظرفاء، وقد كان عالماً بالنحو والغريب، وعارفاً بأيام وأخبار الناس، كما كان له إلمام بالفلسفة.

غير أنه كان دائم الفقر؛ فلما عرف ذلك من نفسه لبس ثوب الحماقة ولم تمض عليه سنة إلا وقد صار من الأغنياء. وتطالعنا هاهنا مرة أخرى ظاهرة الثنائية التي رأيناها من قبل في شعراء آخرين. وقد صرّح أبو العجل نفسه، في إحدى قصائده مخاطباً الخليفة المتوكل بأن الفقر هو الذي جعل منه شاعراً أحمقاً. وعندما زار المتوكل دمشق قابله أبو العجل ممتطياً خيزرانة لابساً خُفاً في إحدى رجليه وفى الأخرى حذاءً ، وكان يصحبه غلامُ يخدمه مرتدياً ثوباً واسعاً بأكمام طويلة وواضعاً على رأسه طرطوراً، وكان يمشي أمام الشاعر. وحينما وقع بصر المتوكل عليهما ابتسم ووصف أبا العجل بالجنون، فأنشده أبو العجل:

شه شه على العقلِ ماهو من شكللي

صاحبه مفلوس قليل ذي الحيللي

قد استرحت من الـ لوام والعذلل

فما أبالي ما الذي قلت وما قيل لي

وحمقى قد صَيَّر العالم خولاً للي

آمل أن يحملني حمقي على بغلل

من عند ذ السيد والمنعم المفضلل

أمير دين المؤمن نين المتوكل للي

فضحك المتوكل وأجزل للشاعر العطاء. ونقش المتوكل على خاتمه "حمقت فَنَبُلْتَ"[٣١].

---

[٣١]) ابن المعتز ص ٤٥٢.

وبعض شعراء هاتين الطبقتين (الفقر والحماقة) والذين كان دورهم أشبه بدور المهرجين في بلاد الغرب، وهو العمل على تسلية وإضحاك الأثرياء والطبقات العليا في المجتمع، كانوا من الظرفاء؛ وهناك كثير من الشعراء من طبقات ابن المعتز ورد ذكرهم على أنهم من أولئك الظرفاء، ومن هؤلاء بشار، وأبان بن عبد الحميد وأبو دلامة الذي ذكر عنه أن شعره يمتليء بالظرف والنوادر؛ ومنهم عوف بن محلم وأبو نواس الذي قال ابن المعتز عنه أنه كان من كبار أهل الأدب والعلم، وكان ((خليعاً ماجناً وفتىً شاطراً)) ومع هذا فإنه كان حلواً وظريفاً. وقد سحر الناس بظرفه وحلاوته وكثرة طرائفه، وكان حسن الصلة بالوزراء وأهل الشرف وكان يجالسهم ويباسطهم وقد تعلم لأجلهم الظرف والتهذيب وصار مثلاً يحتذى لكل الناس الخاصة والعامة، أثيراً لديهم[٣٢].

وربما كان من الصعوبة بمكان أن نعطي معنى محدداً لكلمة ظريف لأن لفظة ظرف في ذاتها تحمل معنى فضفاضاً. وقد أورد أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي(ت.عام ٥٩٧هـ) في كتابه (أخبار الظرَّاف والمماجنين) عدداً من التعريفات لكلمة ظرْف. وعنده أن الظرف قد يكون في حسن الوجه وجماله، وفي حسن القامة والقد، وفي فصاحة اللسان، وحلاوة المنطق، وفي طيب الرائحة والنفور من الدنس ومن الأفعال القبيحة؛ وكذلك يكون في الرشاقة، وفي حدة الذهن، وفي لطف الدعابة، وكذلك يكون في السماحة والكرم والعطاء، وفي العفو وفي خصال لطيفة أخرى. ويبدو من كلامه كأن لفظة ظريف قد اشتقت من (ظرْف) التي تعني (وعاء) وأن الشخص الظريف هو وعاء لكل الخصال الحميدة؛ وكل مَنْ يتصف ببعض هذه الخصال يقال له ظريف. ثم أورد ابن الجوزي بعد ذلك عدداً من الآراء حول الظرف والظريف؛ من ذلك ما قاله الحسن البصري من أنَّ اللص إذا كان ظريفاً فإن ظرفه يمكنه من الإفلات من العقوبة. وهذا يعني –كما يرى ابن الجوزي– أن اللص الظريف يمكنه

---

[٣٢]) نفسه ص ١٩٥-٢٠٢.

أن يدافع عن نفسه بما أوتى من حجج منطقية. وقد أعطى ابن الأعرابي والأصمعي تعريفهما للظرف بأنه "جودة وفصاحة الكلام" ويرى الكسائي أنَّ "الظريف" هو "الحسن الوجه واللسان" ويرى آخرون أن الظرف يكون في الثوب. ويفسر غيرهم الظرف بأنه "تَحَملُّ الصعاب"

وهناك غير هذا مزيدُ من التفاسير لمعنى الظرف لا حاجة بنا لاستقصائها جميعاً[٣٣].

ولعل خير الأمثلة على شعراء الفقر أبو الشمقمق وأبو فرعون الساسي وكلاهما نظم قدراً من الشعر فيه كثير من السخرية حتى من أسرهم.

وفي القصيدتين التاليتين نجد أبا الشمقمق يصف في سخرية وتهكم الحال المزري الذي تعيش فيه أسرته. وتمثل القصيدة الأولى منهما مدحاً للخليفة المنصور يقول مطلعها:

عاد الشمقمق في الخَسَاره وصَبَا وَحنَّ إلى زراره

ويقول في أبيات المدح:

يا أيها الملك الذي جَمَعَ الجلالة والوقارهْ
ورَث المكارمَ صالحاً والجودَ مِنهُ والعِمارهْ
أني رأيتك في المنا م وعَدتني مِنكَ الزيارهْ
فعدوتُ نحوك قاصداً وعليك تصديقُ العبارهُ
أني أتاني بالندى والجو د منك لي البشارهْ
إنَّ العيالَ تركتهمُ بالمِصْرِ خبزهمُ العُصارهْ
وشرابُهم بول الحما رِ مزاجه بَولُ الحمارهْ
ضَجُّوا فقلتُ تصبَّروا فالنجح يُقرنُ بالصبارهْ
حتى أزور الهاشمـ يَّ أخا الغضارة والنضارهْ

[٣٣]) ابن الجوزي: أخبار الظرَّاف والمتماجنين ص ١٢-١٣.

ولقد غدوتُ وليس لي إلا مديحك من تجارهْ[٣٤]

وتشتمل القصيدة الثانية على الأبيات الآتي':

مَا جَمعَ الناسُ لدنياهُمُ أنفع في البيت من الخُبْزِ

والخُبْزُ باللحم إذا نلتهُ فأنت في أمْنٍ من الترز

وقدْ دَنا الفطرُ وصبيانُنا ليسوا بذي تمْرٍ ولا أرْزِ

وذاك أنَّ الدّهرَ عاداهم عدواة الشاهين لِلوزِّ

كانت لهم عَنزة فأودى بها وأجدبوا من لبن العنزِ

فلو رأوا خُبزاً على شاهقٍ لأسرعوا للخبز بالجْمز

ولو طاقوا القفز ما فاتهم وكيف للجائع بالقفز[٣٥]

وقد أعطانا أبو فرعون الساسي–وكان من المكدِّين– وصفاً دقيقاً مليئاً بالسخرية والدعابة لحياة الفقر التي يعيشها. يقول في الأبيات الآتيه يصف نفسه وأسرته:

إليك أشكو صبية وأمهم لايشبعون وأبوهم مثلهم*

لا يعرفون الخبز إلا باسمه والتمر هَيهات فليس عندهُمْ

وما رأوا فاكهة في سوقها وما رأوها وهى تنحو نحوهُمْ

وفي قصيدة أخرى يسخر من بيته الذي لا يجد فيه اللص شيئاً يسرقه ويقول: أن بابه دائماً مغلق لئلا يرى الناس ويعرفوا الفقر الذي يعيش فيه صاحبه، يقول:

ليْسَ إغلاقي لبابي أنَّ لي فيه ما أخشى عليه السَّرقا

إنما أغلقه كي لا يرى سوءَ حالي مِنْ يجوبُ الطرقا

منزلٌ أوطئه الفقر فلو دخل السارقُ فيه سُرقا

لا تراني كاذباً في وصفه لو تراه قلت لي: صدقا

---

[٣٤]) ابن المعتز طبقات الشعراء ص ١٢٧.

[٣٥]) نفسه ص ١٢٧.

*) بعد البيت الأول:

قَدْ أكلوا اللحم ولم يشبعْهُمُ وشربوا الماءَ فطال شُرْبُهُمْ

وفي قصيدة ثالثة يُكنى نفس بأبي الفقر وأم الفقر ويشبه أطفاله بصغار النمل وقد اسودت وجوههم من الفقر؛ ويحدثنا كيف يظل يومه منذ طلوع الفجر يجوب الطرقات يسأل الناس وأطفاله معه، يقول:

وصبية مثل فرخ الذرِّ سودُ الوجوه كسواد القِدْرِ
جاء الشتاءُ وهم بِشَرِّ بغَيرِ قُمْصٍ وبغير أُزْرِ
حتى إذ لاح عمود الفجر وجاءني الصبح غدوتُ أسْري
وبعضهم ملتصق بصدري وبعضهم منجحر بحجري
أسبقهم إلى أصول الجُذْرِ هذا جميع قصتي وأمري
فارحم عيالي وتولَّ أمري كَنَّيتُ نفسي كنية في شعري
أنا أبو الفقر وأم الفقر[٣٦]

[٣٦]) ابن المعتز ص ٣٧٧-٣٧٦.

خاتمة ونتائج

تتبعنا بإيجاز مسيرة الهجاء من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي وتعرفنا على خصائصه وأساليبه وأنواعه خلال تلك العصور وذلك من أجل إلقاء الضوء على اختيارات ابن المعتز من ذلك الفن الشعري ، وكيف تطور في العصر العباسي وظهرت فيه أنماط جديدة ؛ وعرض البحث أيضاً إلى شعر المجون والخلاعة ، وتتبع ظهور ذلك اللون الشعري وبروزه بصورة ما في العصر الأموي ثم نموه وازدهاره في العصر العباسي.

كما تعرض البحث إلى الحديث عن شعراء الفقر والحماقة الذين عبروا من خلال أشعارهم عن حالهم وحال الطبقات الفقيرة التي ينتمون إليها.

وقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن شعر الهجاء قد تطور عما كان عليه في العصر الجاهلي ومر في تطوره بعد ذلك بعصرين هما العصر الأموي ثم العصر العباسي ، وكان في كليهما له مميزاته. وكان أشد ما يهجى به المرء في الجاهلية أن يعير بالجبن والبخل وسقوط المروءة والفرار من المعركة وخفر الجوار ، وربما يفاضل بينه وبين الآخرين ، إلى غير ذلك . حتى إذا جاء العصر الأموي وجدنا شعر النقائض الذي وإن لم يكن جديدا كل الجدة – إذا سبقته أنماط منه تمثلت في نقائض الأوس والخزرج ، ونقائض شعراء المسلمين والمشركين– إلا أنه في العصر الأموي تطور تطوراً ملحوظاً وساهمت في ازدهاره عوامل السياسة والقبلية ، وأسباب أخرى شخصية ، وكان في كثير من نواحيه مترجماً عن العصبية القبلية التي خالطتها السياسة ، وهو بذلك يختلف في كثير من جوانبه عن الهجاء في الجاهلية.

وقد ضعفت النقائض في العصر العباسي إذ تلاشت الظروف القبلية والسياسية التي أججت نيرانها ؛ غير أنَّ الهجاء لم يضعف وإنما برز وازدهر وتمثل في الجانب الفردي وارتبط بالمجون والخلاعة والإقذاع والفُحش وامتزج بالفكاهة والتندر والسخرية

مصوراً إلى جانب الرذائل الخلقية النقائض الجسمانية ، ولم تسلم منه الأعراض والأنساب والدين كما ترجم في بعض جوانبه عن الشعوبية والزندقة ، كما أنه تلون في بعض أشكاله باللون السياسي والمذهبي . وقد كان لظهور طبقة المجان من الشعراء في الكوفة واشتداد موجة المجون في خراسان والعراق في أواخر العصر الأموي أثرها في نمو شعر المجون واختلاطه بشعر الهجاء في العصر العباسي عند كثير من الشعراء آنذاك ؛ وهو بذلك – أي شعر الهجاء – قد فقد مكانته الجادة ، وتحول إلى لون من الهزل أشبع حاجة الناس في التغيير والانصراف عن الألوان الجادة في الشعر وروايتها مما ألمح إليه ابن المعتز في طبقاته .

وقد تبين من خلال البحث أنَّ طبقات الشعب الدنيا كانت تعيش حالة من الفقر والبؤس ترجم عنها الشعراء الذين عانوا من تلك الحال فكانوا لسان تلك الطبقات الفقيرة وعبروا عنها ، وسلكوا سبيل الحماقة والرطازة والرقاعة كما وصفهم ابن المعتز من خلال اختياراته من أشعارهم التي لم تخل من المجون والخلاعة والإقذاع في الهجاء ، في كثير من جوانبها وكان الفقر هو أهم أسباب ظهورهم.

المصادر والمراجع

١-ابن الجوزي : أخبار الظراف والمتماجنين دمشق ١٩٢٨م.

٢-الحصري القيرواني : الجواهر في الملح والنوادر ، القاهرة ١٩٥٣م.

٣-ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعراء وآدابه ونقده ، القاهرة ١٩٣٤م.

٤-زهير بن أبي سلمى : ديوان زهير ، شرح ثعلب ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط٢ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٥-سلام د. محمد زغلول : تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٤م.

٦-الشنطي د.محمد صالح : في الأدب العربي القديم عصوره وتطوره وفنونه ونماذج مدروسة منه ط١ ، دار الأندلس للنشر والتوزيع حائل المملكة العربية السعودية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٧-د. شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ط٧ ، دار المعارف بمصر (دت).

٨-د. شوقي ضيف : العصر الإسلامي ط٧ ، دار المعارف بمصر (دت).

٩-الأصفهاني أبو الفرج : الأغاني ط بيروت ١٩٧٢م ، ط دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٧م.

١٠- الصولي أبو بكر أخبار أبي تمام ، تحقيق خليل عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي المكتب التجاري بيروت (دت).

١١- عز الدين إسماعيل : في الأدب العباسي الرؤية والفن بيروت ١٩٧٥م.

١٢- عليوة محمد حلمي : نظرات في الأدب الجاهلي (مخطوط).

١٣- القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

١٤- قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ليدن ١٩٥٦م.

١٥- ابن المعتز : طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج دار المعارف بمصر القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٦٥م.

١٦- ابن المعتز : ديوان ابن المعتز ١٩٦١م.